القسم الأول

ويتناول المراحل التالية :

* سرية الدعوة وسرية التنظيم .

* جهرية الدعوة وسرية التنظيم .

* مرحلة قيام الدولة .

obeikandl.com

obeikandl.com

المرحلة الأولى

سِرّية الدّعَوة وَسِرّية التنظيم

هذه المرحلة التى ابتدأت من غار حراء مع البعثة النبوية، وانتهت بعد ثلاثة أعوام للبعثة حين نزل قول الله عز وجل: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾، وقوله جل شأنه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

obeikandl.com

obeikandl.com

السمة الأولى
الدعوة سراً

يقول المقريزى فى كتابه إمتاع الأسماع : (والتحقيق أن جبريل عليه السلام لما جاءه بغار حراء وأقرأه : ﴿ اقْرَأْ باسْمِ ربِّكَ الذي خلق ﴾ [العلق : ١] ، ورجع إلى خديجة، مكث ما شاء الله أن يمكث لا يرى شيئاً ، وفتر عنه الوحى ؛ فاغتم لذلك وذهب مراراً ليتردى من رؤوس الجبال شوقاً إلى ما عاين أول مرة من مشاهدة وحى الله إليه. فقيل : إن فترة الوحى[1] كانت قريباً من سنتين ، وقيل : كانت سنتين ونصفاً. وفى تفسير عبد الله بن عباس كانت أربعين يوماً ، وفى كتاب معانى القرآن للزجّاج كانت خمسة عشر يوما،وفى تفسير مقاتل ثلاثة أيام ، ورجحه بعضهم وقال: ولعل هذا هو الأشبه بحاله عند ربه ، ثم تبدى له الملك بين السماء والأرض على كرسى،وثبته وبشره أنه رسول الله ، فلما رآه فرق منه[2] ، وذهب إلى خديجة رضي الله عنها . فقال : « زملونى زملونى » ، فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيُّها المُدَّثِّرُ . قُمْ فأنذِرْ . وربَّكَ فكبِّرْ . وثِيابَكَ فطهِّرْ ﴾ [المدثر : ١ ـ ٤] . فكانت الحالة الأولى بغار حراء حالة نبوّة وإيحاء ، ثم أمره الله تعالى فى هذه الآية أن ينذر قومه ويدعوهم إلى الله ـ عز وجل .

فكان ـ فيما قاله عروة بن الزبير ، ومحمد بن شهاب ، ومحمد بن إسحاق ـ من حين أتت النبوّة وأنزل عليه : ﴿ اقْرَأْ باسْمِ ربِّكَ ﴾ إلى أن كلفه الله الدعوة وأمره بإظهارها فيما أنزل عليه من قوله : ﴿ فاصْدَعْ بما تُؤمَرُ وأَعْرِضْ عنِ المُشْرِكين ﴾ [الحجر:٩٤]، وقوله : ﴿وأنذِرْ عشيرتَكَ الأقْربين ﴾ [الشعراء : ٢١٤] ، ﴿ وقُلْ إنّي أنا النذيرُ المُبـــين ﴾ [الحجر : ٨٩] . ثلاث سنين)[3] .

ونلاحظ أن المقريزى رجح الآراء التى تعتبر فترة انقطاع الوحى فترة قصيرة

---

(١) فترة الوحى : انقطاع الوحى . (٢) فرق منه : خاف .

(٣) إمتاع الأسماع للمقريزى ١/ ١٥ تحقيق محمود محمد شاكر ، ونشر عبد الله إبراهيم الأنصارى ، وطبع على نفقة إدارة الشؤون الدينية بدولة قطر .

حول الأربعين والخمسة عشر والثلاثة من الأيام[1] . بينما ساق الأقوال الأولى عن السنتين والسنتين والنصف دون إسناد .

وفى ترجيح المقريزى يزول الإشكال الكبير حول هذه الفترة التى لا نجد لها ذكراً أو تاريخاً . ولو حُسِبَتْ هاتان السنتان والنصف من المرحلة السرية لكانت مرحلة الدعوة فيها لا تعدو سنة أو نصف سنة،ومن المستبعد جداً أن يكون ذلك .

ننتهى بهذا إلى أن السمة الأولى لهذه المرحلة : هى امتدادها الزمنى ثلاث سنوات وإن كنا فى واقع الأمر لا نبنى شيئاً على هذه المدة ، ولا نفهم أن الحركة الإسلامية اليوم لابد أن تمر بمرحلة سرية هى ثلاث سنوات .

فهذا أمر لا نص فيه يدعونا إلى الاقتداء به ولا نحجر واسعاً ، إنما نفهم أن انتهاء هذه المرحلة قد كان لأنه قد صار للمسلمين قاعدة صلبة مستعصية على الإفناء إذا قيست بنوعياتها من جهة ، ونسبتها إلى المجتمع المكى آنذاك من جهة ثانية .

ومن هذا الجانب تكون القدوة ، فليس المهم حساب الزمن ، إنما المهم الحصيلة العملية للدعوة ، وقدرتها على المواجهة للمجتمع القائم من خلال أشخاصها ورجالاتها ومؤسساتها .

ونجد ما يرجح هذا الفهم من قول الله عز وجل : ﴿ **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** ﴾حيث نجد بعد هذه الآية مباشرة قوله تعالى:﴿ **إنا كفيناك المستهزئين** ﴾ [الحجر:٩٥].

لقد كان الصدع بعد تكفل الله تعالى بحماية رسوله وكفايته من المستهزئين . وإذا كان ذلك قد تم لرسول الله ﷺ من خلال الوحى ، فقيادة الحركة المسلمة الرشيدة هى المسؤولة عن تقدير هذه المرحلة ، وإمكاناتها للانتقال إلى مرحلة لاحقة .

ويؤكد هذا الفهم من جهة ثانية ـ وهو عدم ارتباط هذه المرحلة بزمن معين أو

---

(١) وقد ورد فى الصحيحين : « اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فجاءت امرأة ـ وهى أم جميل بنت حرب ـ فقالت : يا محمد ، إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ! لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى** ﴾ [الضحى : ١ ـ ٣].

محدد ـ أن بعض المسلمين فى غير مكة بقوا على سريتهم أزمنة مختلفة حسب إمكانياتهم فى قبائلهم، وقدرتهم على الدعوة والاصطفاء[1] .

السمة الثانية
قيام الدعوة على الاصطفاء

فهى ليست دعوة علنية تقام فى الأندية العامة والمجالس والمحافل ؛ إنما تقوم على الاصطفاء الشخصى ، وتقدير الداعية لطبيعة المدعو .

لقد وجدنا أن اللبنات الأولى للدعوة كانت خديجة رضي الله عنها أول من آمن فى الأرض من النساء،وهى زوج النبى ﷺ، وأبو بكر رضي الله عنه وهو صديقه الحميم، وعلى بن أبى طالب وهو ربيبه وفى رعايته وبيته ، وهو بمثابة ابنه ، وزيد بن حارثة مولاه . وعندما انطلق أبو بكر رضي الله عنه بالدعوة اختار الطريق نفسه.

يقول ابن إسحاق : (ثم أسلم أبو بكر بن أبى قحافة . . . وكان أبو بكر رجلاً مألفاً لقومه ، محبباً سهلاً، وكان أنسب قرشى لقريش وأعلم قرشى بها وبما كان فيها من خير أو شر ، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر : لعلمه وتجارته ، وحسن مجالسته . فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه .

فأسلم بدعائه عثمان بن عفان،والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف،وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله.فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس بالإسلام ، فصلوا ، وصدقوا) [2] .

لقد كانت الدعوة من خلال الثقة رغم أن رواد أبى بكر كثر ، وممن يتوسم بهم الاستجابة لهذه الدعوة .

---

(١) الذى حدا بنا إلى هذا الإسهاب هو أن بعض الحركات الإسلامية الحديثة تأخذ بمفهوم الزمن فى السيرة. فتحدد مسيرتها زمنياً بمسيرة السيرة النبوية ، مما أوقعها فى تناقض واضح .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٦٧ ـ ٢٦٩ . ط دار إحياء التراث العربى ـ لبنان ، تحقيق السقا وزملائه.

السمة الثالثة

العمل من خلال ثقافة الداعية ومركزه الاجتماعى

وهى تعقيب على ما سبق ذكره من مواصفات شخصية أبى بكر رضي الله عنه ، وكونه أقدر الدعاة على التأثير آنذاك . ونستطيع أن نتعرف على مواصفات هذه الشخصية من العناصر التالية :

أ ـ خلقه : كان رجلاً مألفاً لقومه ، محبباً سهلاً .

ب ـ ثقافته : كان أنسب قرشى لقريش وأعلم قرشى بها، وبما كان فيها من خير وشر .

جـ ـ مركزه الاجتماعى وعمله : وكان رجلاً تاجراً . . . وكان رجال قومه يألفونه لغير واحد من الأمر ، علماً بأن أبا بكر من حيث الحسب والنسب هو من أضعف قريش نسباً ، ويمثل هذا المركز ما روى عن أبى سفيان حين استلم أبو بكر الخلافة قوله :

« ما بال هذا الأمر فى أذل حىٍّ من قريش » .

ولكن هذا لم يحل دون تبوئه المكانة المرموقة فى قومه . ومن خلال هذه المواصفات نحرص على أن توجد لدى الداعية اليوم .

فالخلق المحبب السهل هو الذى يضمن القدرة على النفاذ للآخرين ، وهو الذى يفتح القلوب له ولو كانت مستعصية ، وهو الذى يضمن البعد عن ردود الفعل فى حالة الموقف السلبى من الدعوة .

والثقافة ليست بأقل شأناً من الخلق ، وليس كل نوعٍ من أنواع الثقافة هو المطلوب فى هذا الصدد ، بل الثقافة ذات الخبرة بالمجتمع واتجاهاته وميوله . والثقافة التى تعرف نفوس الناس ومنازعهم ومشاربهم وعواطفهم ، هى التى تكون مفتاح التحرك للداعية ، وباب الولوج إلى قلب المدعو .

﴿ **أفلا يتدبَّرُون القُرآن أم على قُلُوب أقفَالُها** ﴾ [محمد : ٢٤] .

فللقلوب أقفال ، ومهمة الداعية أن يملك مفاتيح هذه الأقفال ، ويعرف من أين يدخل إليها ، حتى تستجيب له .

والمركز الاجتماعى للداعية يجعل له أذناً صاغية من الناس ؛ فترفع الداعية عن الحاجة وذل السؤال والتطلع إلى ما فى أيدى الناس ، هو الذى يكسبه الاحترام فى مجتمعٍ أعلى قيمه هى المال والشهرة . وقد وجهنا لذلك رسول الله ﷺ بقوله :

« ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد بما فى أيدى الناس يحبك الناس »[1] .

وإذا كان المركز الاجتماعى بطبيعته ذا صلة وثيقة بالناس، فهذا أدعى إلى التأثير فيهم؛ إذ إن العلاقة تبدو طبيعية وغير متكلفة ، ولا يحتاج الداعية ليتصنع سبباً للاتصال بهم . فالمدرس مثلاً والتاجر أقدر على الحركة من الموظف المحصور فى إطار محدد .

السمة الرابعة

الدعوة عامة

وقد يبدو لأول وهلة أن هناك تناقضاً بين هذه السمة والسمة الأولى ، وليس الأمر كذلك ؛ فإظهار الدعوة للمختصين لا تعنى أن تكون دُولة لفئة معينة من الناس ، أو طبقة خاصة من طبقات هذا المجتمع ، بل لا بد أن تتناول قطاعات المجتمع كله ، ويتم هذا التناول عن طريق الاصطفاء الخاص من أفراده. فقد وجدنا أن هذه المرحلة السرية للمجتمع المسلم قد انضم فيها إلى الإسلام من كل فئات المجتمع آنذاك : الأحرار والعبيد ، الرجال والنساء ، الشباب والشيوخ والفتيان ، بل انضم لهذا المجتمع أفراد من شتى الفروع من قريش وغيرها حيث لا تكاد تخلو عشيرة فى مكة من شخص أو اثنين شاركا فى بناء هذا المجتمع .

ولو استعرضنا توزيع الصحابة على القبائل الكبرى المشهورة لوجدناها كما يلى :

أولاً : بنو هاشم :

١ ـ على بن أبى طالب .

٢ ـ جعفر بن أبى طالب .

---

(١) رواه ابن ماجه بإسناد حسن .

٣ ـ أم الفضل بنت الحارث .
٤ ـ عبيدة بن الحارث .
٥ ـ أسماء بنت عميس (زوج جعفر) .
٦ ـ خديجة بنت خويلد .
٧ ـ زيد بن حارثة (مولى) .

ثانياً : بنو أمية :

٨ ـ عثمان بن عفان .
٩ ـ خالد بن سعيد .
١٠ ـ أمينة بنت خالد (زوج خالد) .
١١ ـ حاطب بن عمرو .
١٢ ـ عبد الله بن جحش (حليف).
١٣ ـ أبو أحمد بن جحش (حليف).
١٤ ـ فاطمة (زوجه) .

ثالثاً : بنو مخزوم :

١٥ ـ أبو سلمة بن عبد الأسد .
١٦ ـ عياش بن أبى ربيعة .
١٧ ـ عمار بن ياسر (حليف) .
١٨ ـ أسماء (زوجة عياش) .
١٩ ـ ياسر بن عامر (حليف) .
٢٠ ـ سمية بنت خياط (زوج ياسر).
٢١ ـ الأرقم بن أبى الأرقم .

رابعاً : بنو تيم :

٢٢ ـ أبو بكر الصديق .
٢٣ ـ طلحة بن عبيد الله .
٢٤ ـ عامر بن فهيرة (مولى) .
٢٥ ـ بلال بن رباح (مولى) .
٢٦ ـ صهيب بن سنان (مولى) .

خامساً : بنو عدى :

٢٧ ـ سعيد بن زيد .
٢٨ ـ فاطمة بنت الخطاب .
٢٩ ـ عامر بن أبى ربيعة (حليف) .
٣٠ ـ نعيم بن عبد الله .
٣١ ـ واقد بن عبد الله (حليف) .
٣٢ـ خالد بن البكير (حليف) .
٣٣ ـ عامر بن البكير (حليف) .
٣٤ ـ إياس بن البكير (حليف).

obeikandl.com

سادساً : بنو زهرة :

٣٥ ـ سعد بن أبى وقاص .
٣٦ ـ عبد الرحمن بن عوف .
٣٧ ـ عمير بن أبى وقاص .
٣٨ ـ المطلب بن أزهر .
٣٩ ـ عبد الله بن مسعود (حليف).
٤٠ ـ خباب بن الأرت (حليف).
٤١ ـ مسعود بن ربيعة (حليف) .

سابعاً : بنو سهم :

٤٢ ـ خنيس بن حذافة .
٤٣ ـ حفصة بنت عمر (زوجه) .

ثامناً : بنو جمح :

٤٤ ـ حاطب بن الحارث .
٤٥ ـ فاطمة (زوجه) .
٤٦ ـ خطاب بن الحارث .
٤٧ ـ فكيهة (زوجه) .
٤٨ ـ السائب بن عثمان .
٤٩ ـ معمر بن الحارث .
٥٠ ـ عثمان بن مظعون .
٥١ ـ عبد الله بن مظعون .
٥٢ ـ رملة (زوجه) .
٥٣ ـ السائب بن مظعون .

تاسعاً : بنو أسد :

٥٤ ـ الزبير بن العوام .

عاشراً : بنو الحارث بن فهر :

٥٥ ـ أبو عبيدة عامر بن الجراح .

حادى عشر : بنو عامر بن لؤى :

٥٦ـ سليط بن عمرو .
٥٧ ـ حاطب بن عمر .

ثانى عشر : قبائل متفرقة :

٥٨ ـ عمرو بن عبسة السلمى .

obeikandl.com

٥٩ ـ جندب بن جنادة الغفارى(أبو ذر) [١] .

وهكذا نرى أن الستين الأوائل هم من كل قطاعات المجتمع المكى .

السمة الخامسة

دور المرأة فى المرحلة السرية

لقد كان ربع هذا المجتمع من النساء ، ومعظم الشباب المتزوجين أسلمت معهم زوجاتهم ، وعشن المرحلة السرية دون أن يدرى بهن أحد ، وحافظن على السر وكتمنه دون أن نسمع شيئاً من إفشائهن له .

ولعلنا نعطى المرأة حقها من الاهتمام فى مسيرة هذه الدعوة ، فتكون بجانب الرجل أختاً وزوجاً وأماً وتعيش همه . بل تذكر بعض الروايات أن أسماء ﵂ من جنود هذه المرحلة ، وهذا يعنى أنها كانت فى طفولتها المتأخرة [٢] .

السمة السادسة

الصلاة

لم تخل مرحلة من مراحل دعوة المسلمين من الصلاة على الأرجح .

قال ابن إسحاق : (وحدثنى بعض أهل العلم أن الصلاة حين افترضت على رسول اللّه ﷺ أتاه جبريل وهو بأعلى مكة ، فهمز له بعقبه فى ناحية الوادى ، فانفجرت منه عين فتوضأ جبريل ، ورسول اللّه ﷺ ينظر ليريه كيف الطهور ، ثم توضأ رسول اللّه كما رأى جبريل ، ثم قام به جبريل . فصلى به ، وصلى رسول اللّه ﷺ لصلاته ، ثم انصرف جبريل ﵇ ، فجاء رسول اللّه ﷺ خديجة فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل ، فتوضأت كما توضأ رسول اللّه ﷺ ، ثم صلى بها رسول اللّه كما صلى به جبريل فصلت بصلاته)[٣] .

---

(١) والملاحظ أن أبا ذر وعمرًا لم يأذن لهما رسول الله ﷺ بالإقامة بمكة فلا إقامة بلا إجارة ، ولن يجيرهما أحد من المشركين ، وجوار المسلمين مرفوض .

(٢) من دراسة ترجمة أسماء ﵂ يبدو أن عمرها عندما جاء الإسلام كان عشر سنوات .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٤٣ ــ ٢٤٤ ، وقد رواه ابن إسحاق مقطوعا ووصله الحارث بن أبى أسامة بسنده إلى الزهرى عن أسامة بن زيد عن ابنه .

وذكر بعض أهل العلم أن رسول اللّه ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه على بن أبى طالب مستخفياً من أبيه أبى طالب، ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا فمكثا كذلك ما شاء اللّه أن يمكثا [1] .

السمة السابعة

معرفة قريش بخبر الدعوة

لم تكن قريش لتبنى على هذه المعرفة شيئا أو تعيرها اهتماماً فقد كانت ظاهرة الحنيفية[2] منتشرة فى المجتمع المكى ، فزيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل، وأمية بن أبى الصلت ، كانوا يمثلون فى مكة هذه الظاهرة ولا تهتم مكة بمثل هذه الأحداث وهؤلاء الناس ، طالما أنهم لا يتعرضون لعقائدها وأصنامها ، فقد كان رسول اللّه ﷺ يتحنث الليالى ذوات العدد قبل البعثة ، ويجاور فى غار حراء ، ومع ذلك لا تجد قريش غضاضة فى ذلك، وحسبت أن الإسلام مثل هؤلاء الحنفاء الذين اعتزلوا عبادة الأصنام ، بل يمكن القول : إن قريشاً كانت تهتم بالحنيفيين أكثر مما اهتمت بالمسلمين فى المرحلة السرية ؛ وذلك لأن الحنفاء كانوا يعلنون شكهم بأصنام قريش وأوثان العرب بينما لم يعلن المسلمون موقفهم تجاهها .

وتذكر بعض الروايات أن أحد التجار كان فى زيارة للعباس فى بيته فرأى رجلاً وامرأة وطفلاً يتقدمون فيصلون بصورة تخالف ما كانت تعهده قريش من الصلاة ، فسأل التاجر العباس عنهم فقال له : هذا ابن أخى ـ ويشير إلى على ـ وهذا ابن أخى ـ ويشير إلى رسول اللّه ـ وهذه زوجته . وإن هذا يزعم أن اللّه يكلمه من السماء ، واللّه ما أعلم على ظهر الأرض أحدا على هذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة [3] .

كما تشير الرواية السابقة التى ذكرناها عن خروج على رضي الله عنه مع رسول اللّه

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٤٦ ، وقد روى الإمام أحمد بسند حسن فى مسنده ١ / ٩٩ عن على بن أبى طالب والحديث رقم (٧٧٦) ط الشيخ شاكر ، هذا المعنى وخروج أبى طالب عليه ببطن نخلة ، وقال فيه : لقد صليت قبل أن يصلى الناس سبعا .

(٢) الحنيفية : هى عبادة الله تعالى على دين إبراهيم عليه السلام ونفى الشرك عن الله تعالى ونبذ عبادة الأصنام .

(٣) رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه والطبرانى بأسانيد ، ورجال أحمد ثقات .

ﷺ إلى الشعاب للصلاة ، أن أبا طالب طلع عليهما ذات يوم فرآهما يصليان . فقال لرسول الله ﷺ : يا بن أخى ، ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟

قال: « أى عم ، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم ، بعثنى الله به رسولاً للعباد . وأنت أى عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابنى إليه ، وأعاننى عليه » أو كما قال . فقال أبو طالب :

أى ابن أخى ، لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن لا يخلص إليك شىء تكرهه ما بقيت .

وذكروا أنه قال لعلى: أى بنى ما هذا الذى أنت عليه ؟ فزعموا أنه قال له : آمنت برسول الله ، وصدقت بماجاء به ، وصليت معه لله ، واتبعته.

فزعموا أنه قال له : أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه[1] .

لم يكن إذاً لملاحظة قريش بعض هذه الظواهر الغريبة، ما يثير غضبها طالما أن القوم مكتفون بأنفسهم، منكفئون على ذواتهم، فكل امرئ حر أن يعبد الله كما يشاء، طالما أن الدين عقيدة فى القلب، وعبادة فى المعبد ، ولا يتدخل فى شؤون الحياة .

ومن هنا نفهم سر المهادنة التى نراها أحياناً بين الحكومات الطاغية وبعض المتدينين من المسلمين ، الذين يكتفون من الإسلام بالعقيدة فى الضمير والعبادة فى المسجد؛ إذ هؤلاء لا يدخلون الإسلام فى شؤون الحياة، وبالتالى فلا تهابهم الطغاة.

السمة الثامنة

المعايشة بين المسلمين وغيرهم

لم نسمع فى هذه المرحلة عن أى صدام وقع بين هذا المجتمع الإسلامى الناشئ وبين المجتمع الجاهلى ، فالفكرة غير معلنة إلا لمن يرجى انضمامه لهذا التجمع الإسلامى القائم ، وليست الدعوة المعلنة هدفاً قائماً فيها ، بل لا يتدخل المسلمون بأى شأن من شؤون غيرهم فى نقد أو مواجهة أو مخالفة ظاهرة . والأصل ألا تظهر المخالفة فى شىء ، إلا فى حالة اضطرارية قاهرة . فلابد من المحافظة على السرية التامة للتنظيم والفكرة .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٤٦ ، ٢٤٧ .

السمة التاسعة

التركيز على بناء العقيدة

وحيث إن العقيدة الكافرة الطاغية قد ملأت على الناس حياتهم ، فلابد من تصحيح هذه العقيدة وبناء العقيدة السليمة بشكل هادئ ؛ لأن العقيدة الصحيحة هى التى ينبثق منها العبادة الصحيحة والسلوك الصحيح ، وهى التى تضمن فى الوقت نفسه الثبات على الحق ، وتحمل التضحيات فى سبيله عندما يطلب من المسلم أن يؤديها ، وكل ما نراه من التراجع والتذبذب والنفاق والتخلى عن طريق الحق مرده ضعف هذه العقيدة ، وتزعزعها وعدم تمكنها من القلب المسلم .

ولأمرٍ ما اختار الإسلام « كلمة الإيمان » للدلالة على العقيدة . فالإيمان يباشر العقل والقلب معاً ويربط الفكر بالوجدان ربطاً وثيقاً ، فليس الأمر قضية قناعة فكرية باردة ، وليس الأمر قضية دفعة عاطفية خاوية من القناعة العقلية ، بل هو الالتحام الكامل بين الجانبين حيث يصعب التمييز بينهما .

السمة العاشرة

الجهر بالدعوة بعد بناء النواة الصلبة

ودليل ذلك أنه لم يرتد أحد عن دينه من هؤلاء عندما وقعت المحنة وابتدأت المواجهة، بل كان هؤلاء الذين عاشوا الخطوات الأولى للدعوة هم القمة فى الإسلام فيما بعد من حيث مستويات إيمانهم ومستويات سلوكهم ، ومستويات جهادهم وتضحياتهم ، ويكفى أن نعرف أن أعلى طبقة فى الأمة المسلمة ـ وهى طبقة العشرة المبشرين بالجنة ـ كانت منهم باستثناء عمر بن الخطاب ﷺ . هذه الطبقة هى التى كونت جيل القيادة للمجتمع الراشد ، وكان اصطفاء الخليفة منها، وتوفى رسول اللّه وهو راضٍ عنها .

هذه النواة هى التى حملت فيما بعد عبء الدعوة للإسلام فى الأرض ، وحملت عبء المواجهة الكبرى مع أعداء هذا الدين .

لقد كان هؤلاء الستون مستعصين على الإبادة بعد أن انتهت هذه المرحلة

وبدأت مرحلة المواجهة ، وكانوا مؤهلين لرضا الله عز وجل .

ويكفى أن ندلل على مدى حب رسول الله ﷺ لهم ما جرى بين خالد بن الوليد رضي الله عنه وبين عبد الرحمن بن عوف حين اختلفا على أمر،ورفع الأمر إلى رسول الله فقال لخالد:

« يا خالد ، دع عنك أصحابى ، فوالله لو كان لك أحد ذهباً ثم أنفقته فى سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابى أو روحته » (١) . فبالرغم من أن خالداً من أصحاب رسول الله ﷺ ، وبالرغم من أنه من الذين أسلموا وأنفقوا قبل الفتح ، بالرغم من ذلك كله ، فلقد قيل له هذا القول حين شاتم عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أحد أفراد النواة الصلبة الأولى التى قام البناء الإسلامى على أكتافها . ولا ننسى أبداً بين نماذج هذه المرحلة من النسوة أمثال خديجة رضي الله عنها إحدى الكاملات فى الدنيا ، وأسماء بنت عميس ، وأم الفضل بنت الحارث وغيرهن اللاتى كن النموذج الأعلى للنساء فى التاريخ . ونتساءل أخيراً عن هذه المرحلة ، هل يمكن أن تتكرر فى تاريخ الحركة الإسلامية ؟ فيما أتصوره أنها لا يمكن أن تتكرر ، وبتعبير آخر لا يمكن أن نتصور الحركة الإسلامية فى دور سرية الدعوة وسرية التنظيم .

إن الدعوة قد أعلنت ، وانتشرت مبادئها فى الكتاب الخالد لها ؛ القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، وفيما ألف عن الإسلام من كتب وأسفار ومجلدات أصبحت ملك الناس جميعاً ، ولهذا لا أرى مبرراً كذلك للعذر فى خفوت الحركة الإسلامية عن الدعوة المعلنة والقول بأنها فى المرحلة السرية الأولى. بل يمكن القول :

لقد انتهت مرحلة سرية الدعوة ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها ؛ لأن هذا الدين قد أعلن واكتمل ، وانتهى أمر إخفائه(٢) .

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾

[المائدة : ٣]

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٧٤ ، وأخرجه الإمام مسلم حديث (٢٥٤٠) وابن ماجه (١٦١) كلاهما من طريق أبى معاوية عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة .

(٢) قد تمر ظروف محلية قاهرة تفرض سرية الدعوة مثلما رأينا فى الحرب الإلحادية التى شنتها الشيوعية على الإسلام فى المعسكر الشرقى آنذاك ، وحاولت إبادة معالم الإسلام كلها ، فكان لابد فى مثل هذه الظروف من سرية الدعوة وسرية التنظيم .

لكننا نستدرك فنقول :

إذا كانت الحركة الإسلامية بشكل عام قد تجاوزت هذه المرحلة . فهذا لا يمنع أن بعض أفرادها قد تتمثل بهم هذه المرحلة، وهؤلاء الأفراد المعنيون هم الذين يقومون بدور سرى فى التنظيمات المعادية ، فلا يظهر تنظيمهم ، ولا تظهر إسلاميتهم . إنهم فى الحقيقة يوجدون فى جميع المراحل ، لكن المواصفات التى تنطبق عليهم هى مواصفات المرحلة الأولى فى الحرص على إثبات انتمائهم الكامل للمجتمع الجاهلى الذى يعيشون فيه . ونشير إلى ملاحظة هامة فى هذا الموضوع فهؤلاء الأشخاص ليسوا هم الذين يحددون دورهم ، إنما الذى يحدد لهم هذا الدور هى القيادة . والذى دفع لهذه الملاحظة ما نراه لدى بعض الشباب الذى يعتبر نفسه منتمياً للإسلام وللحفاظ على مصالحه ودنياه وامتيازاته يمالئ السلطة الباغية، ويتبنى مواقفها ، بل يدخل فى التنظيم الكافر، وينشر مبادئه ويدعو إليها ، ثم يدعى بعد ذلك أنه مسلم بالسر .

هذا هو النفاق فى المفهوم الإسلامى ، وليس هو المرحلية .

إن الذى يقرر للشباب المسلم أو المرأة المسلمة هذا الدور هو قيادة الحركة الإسلامية ، وليس تقديره الشخصى ، والذين كانوا يمثلون هذا الدور فى المراحل اللاحقة كانوا يؤدونه بتكليف من قيادتهم الإسلامية ، لا بقناعاتهم الشخصية .

هذه ملاحظة ، والملاحظة الثانية : إن مثل هذا الدور ، بالمواصفات السابقة يمكن أن يكون بمبادرة شخصية ودون تكليف من القيادة فى حالة التعرض للأذى الماحق ، حيث يباح للمسلم فى هذه الحالة أن يتظاهر بالكفر ، ولكن ليس فى حالة الخوف من الأذى ، والتفريق دقيق بين هاتين النقطتين ؛ لأن النقطة الأولى لها سند شرعى من القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **إلاَّ مَنْ أُكْرِه وقَلْبُه مُطْمئنٌّ بالإيمان** ﴾ [النحل : ١٠٦] ، وقد نزلت فى عمار بن ياسر رضي الله عنه حين تعرض للتعذيب ، وما تركوه حتى ذكر آلهتهم بخير ، وذكر محمداً ﷺ بشّر . وقال له رسول اللّه ﷺ : « إن عادوا فعد » . أما الخوف من الأذى الجسدى أو الأذى المعنوى أو الأذى فى مصالح الدنيا ، فليس مبرراً كافياً لإعلان الكفر ، والمسير فى مخططاته والدعوة إليه .

لقد امتنع الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه عن كلام يحيى بن معين من كبار أئمة الحديث؛ لأنه وافق السلطة بالقول بخلق القرآن ، وعندما ذكّروا الإمام أحمد

بحادث عمار رضي الله عنه أجابهم أن هذا فيمن أكره لا فيمن خاف من الإكراه [1] .

وإن كنا سنعود لذكر هذه النماذج فى المراحل اللاحقة ، حسب حجمها فى الحركة الإسلامية ، لكنا ذكرناها هنا لإيضاح المواصفات العامة لها .

وهذا يقودنا بالتالى إلى معالجة قضية مهمة ذات مساسٍ بمواصفات هذه المرحلة، فالشاب المسلم الذى يكلف بمهمة فى صفوف العدو من قيادته المسلمة . ما هى الحدود التى يباح له فيها أن يوافق ذلك التجمع الجاهلى حتى لا ينكشف أمره ؟

تصورى ، والله أعلم، أن الحدود التى يباح له فيها موافقة هذا التجمع هى الوقوف عند الفرائض والمحرمات ، أى لا يباح له ترك الفريضة كما لا يباح له ارتكاب الكبيرة المحرمة.

ومن الناحية العملية فالفريضة التى تواجهه هى الصلاة ؛ إذ إن بقية الفرائض ليست مستمرة بشكل دائم ، وبالتالى يمكن أن يخفيها ، كما أن فريضة الصيام قد تواجهه فى شهر رمضان .

لقد وجدنا بعض الاتجاهات فى الحركة الإسلامية تبيح لبعض هؤلاء الأفراد الجمع بين الصلاتين ؛ صلاة الظهر والعصر ، وصلاة المغرب والعشاء ، وإن كانت المذاهب الفقهية المعتمدة لا تجيز ذلك ، بالجمع بين الصلاتين دون عذرٍ من سفر أو خوف أو مطر ، لكنها اعتمدت على الحديث الصحيح المروى فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ جمع بين الصلاتين دون عذر .

لكنى لا أدرى رخصة أكبر من هذه . وما يتناقل فى صفوف الشباب الإسلامى من جمع الصلوات كلها فى آخر الليل ، فما أعتقد له سنداً صحيحاً . وما روى عن رسول الله ﷺ من جمعه بين هذه الصلوات كلها يوم الخندق ، فلأن الحرب استمرت من السحر إلى العشاء ، فلم يتمكن المسلمون من الصلاة وهم ملتحمون فى المعركة مع العدو .

ويمكن القول نفسه بالنسبة للصيام فى شهر رمضان . فلا يحق للمسلم الذى يؤدى مهمته فى صفوف العدو أن يتخلى عن فرض الصيام . ويمكن القول نفسه بالنسبة لاجتناب المحرمات .

---

(١) مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزى ص ٣٨٩ .

فالمسلم الذى يعايش العدو بمهمة جاسوسية فُرضت عليه من قيادة الحركة الإسلامية ، والمسلم الذى يدفعه الخوف من الطاغية الكافر إلى ممالأته ، ليس له أن يشرب الخمر مثلاً أو يزنى متذرعاً بهذه الذريعة ، وتكاد تكون الموافقة للكافر ـ والله أعلم ـ محصورة فى الجانب اللفظى الكلامى أو فى بعض اللمم الذى يستغفر اللّهَ منه لو وقع به . فتأدية الفرائض ، واجتناب المحارم هى الحدود الفاصلة بين السرية فى التنظيم والدعوة،وبين المرحلة اللاحقة .

obeikandl.com